

## مدخل لدراسة منهج الطاهر بن عاشور في تفسير «التحرير والتنوير»\*

للأستاذ حميد عنبروي

### نبذة موجزة عن مفسر التحرير والتنوير

#### حياته وتكوينه العلمي:

إن لكل عصر رجالا، وليس رجال هذا العصر بأقل شأنًا من رجال تلك العصور الخوالي، والرجال إنما تقاس بعطاءاتها وإنجازاتها العلمية لا بانتمائها لهذا العصر أو ذاك. وعصرنا الحديث كان له رجاله، ومن الحيف أن نغيب علماء هذا العصر بدعوى أن العلم ذهب به الأولون، وأرجو أن لا نغمط الرجال حقهم، ومن هؤلاء واحد عاش بين ظهرانينا اشتممنا منه عبقرية الرجل المسلم العالم، والرجل مهما قيل في حقه يبقى الكلام قاصرا لا يفي بما جادت به قريحته.

ولكي نعرف الرجل حق المعرفة ننظر أولا إلى حصيلته العلمية وعطائه الفكري ففي هذا ما يصور شخصية الطاهر بن عاشور، وتفسيره الذي سنتناوله بإذن الله هو على رأس إسهاماته العلمية. وقبل الحديث عن مؤلفاته وعن موسوعته التفسيرية لا بأس من الحديث عن شخصيته وتكوينه العلمي. الواقع أنني لم أجد بغيتي فيما يتعلق بهذا الجانب إلا في عدد مغمور من أعداد مجلة «منار الإسلام»، كما بحثت في كتاب «الاعلام»

(\*) انجز هذا البحث بإشراف الأستاذ أحمد اليزيدي

للزركلي باعتباره الكتاب الذي يستطيع أن يترجم حياة الطاهر بن عاشور، إلا أنه كعادة الزركلي في أغلب ترجماته لا يطيل، وقد اعتمدت أولاً على المجلة لأنها خصصت مقالاً طويلاً بكامله لشخصية الطاهر بن عاشور في ملتقى فكري خصص له بتونس ثم ثنيت بما جاء في الاعلام. وسواء استفدنا من المجلة أو من الكتاب فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها. وقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، ويبدو أن سبب انعدام الترجمة الواسعة للرجل كونه معاصراً، وباختصار فقد جاء في المجلة ما يلي :

«خلال المأساة الدموية التاريخية التي شهدتها الاندلس في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين أجبر عدد كبير من مسلمي الاندلس على الهجرة منها بعد أن وقعت في يد الاسبان، وكانت محاكم التفتيش النصرانية الشهيرة تستخدم أبشع أنواع القهر والتعذيب والإذلال، لإجبار المسلمين على التنصر أو الخروج من الاندلس، فهاجر عدد كبير منهم بدينهم، ومن بينهم كان أصل هذه الاسرة الذي استقر بمدينة سلا بالمغرب (على مشارف مدينة الرباط)، وهناك في هذه المدينة ولد مؤسس أسرة ابن عاشور ( محمد بن عاشور) الذي توفي عام 1110هـ. واستمرت هذه الدوحة تنمو حتى جاء عام 1230هـ بمولد علم من أعلامها، وهو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور جد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عالم تونس، وكان عالماً من أعلام القضاء والإفتاء والتدريس والنظارة على بيت المال وكان عضواً بمجلس الشورى... وقد ترك انتاجاً فكرياً إسلامياً استفاد منه طلاب العلوم الإسلامية... وفي عام 1296هـ - 1879م ولد عالمنا محمد الطاهر بن عاشور (الاصغر) بضاحية المرسى بمدينة تونس من هذه الدوحة المباركة. فقد كان جده لأبيه العالم الأجل محمد الطاهر بن عاشور (الأكبر)، وجده لأمه الوزير التونسي الشيخ محمد العزيز بوعتور (الذي كان أحد تلاميذ جده)، وهكذا كانت نشأة عالمنا في بيئة جمعت بين الاصاله والعلم، فحفظ القرآن صغيراً مع بعض

المتون، ثم درس ما تيسر من اللغة الفرنسية. وحينما بلغ الرابعة عشر من العمر أي في عام 1310هـ - 1893 م ألحق بجامع الزيتونة الذي كان يمثل أرفع المدارس العلمية الاسلامية حينذاك حيث ثابر على الدرس والتحصيل لمدة سبع سنوات حصل في نهايتها على شهادة كانت تعرف باسم شهادة (التطويع) وذلك في عام 1317هـ - 1900م.

ولقد درس محمد الطاهر بن عاشور على مشايخ عصره في تونس فنهل من علوم التفسير والحديث والقراءات ومصطلح الحديث والبيان واللغة والتاريخ والمنطق وغير ذلك من علوم الدين والدنيا، ومن أشهر من تتلمذ عليهم الشيخ سالم بوحاجب والشيخ عمر بن الشيخ والشيخ محمد يوسف وغيرهم من كبار علماء تونس الذين حافظوا على علوم الدين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلاديين...

... وقد تأثر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مطلع شبابه بالحركة الاصلاحية التي تزعمها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وكانت مجلة العروة الوثقى تمثل همزة الوصل بين الفكر الاصلاحى وبين المثقفين... وخلال إحدى زيارات الشيخ محمد عبده لتونس عام 1903م كانت فرصة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لرؤيته عن قرب، مما دفعه إلى توجيه الدعوة للشيخ الإمام لإلقاء محاضرة بالجمعية الخلدونية التي كان ابن عاشور عضواً بمجلس إدارتها، وقد قبل الشيخ الدعوة ولباها في سبتمبر 1903م.

كذلك التقى ابن عاشور ببعض المفكرين الغربيين، ومن بينهم المستشرق الالماني (أوبنهايم).. وقد تم هذا اللقاء بتونس عام 1905م حيث ناقشه ابن عاشور وحاوره رغم حداثة تجربته العلمية حينذاك بالنسبة لمثل هذا المستشرق.

وظل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور يعمل في خدمة العلم دارسا ومدرسا وهو يرتقي الدرجات العلمية درجة بعد أخرى حتى جاء عام 1321هـ - 1909م، فسمي نائبا عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة،

وبعد عشرين عاما أخرى من العطاء المتواصل في خدمة العلم، تولى الشيخ ابن عاشور مشيخة جامع الزيتونة عام 1345هـ، فأدخل كثيرا من الاصلاحات على نظم التعليم الإسلامي، واستحدث نظام التفتيش وإرشاد شيوخ الزيتونة ووزع الامتحانات على أربعة مراكز بالبلاد لإجراء شهادة الاهلية<sup>(1)</sup>.

وجاء في ترجمته عند الزركلي في الأعلام قوله : «ابن عاشور 1296 - 1396هـ/1879 - 1973م : محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس ؛ مولده ووفاته ودارسته بها، عين عام 1932م شيخا للاسلام مالكيا، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة، من أشهرها «مقاصد الشريعة الاسلامية»، و«أصول النظام الاجتماعي في الاسلام» و«التحرير والتنوير» في تفسير القرآن صدر منه عشرة أجزاء و«الوقف وأثاره في الاسلام» و«أصول الإنشاء والخطابة» و«موجز البلاغة»، ومما عني بتحقيقه ونشره «ديوان بشار بن برد» في أربعة أجزاء وكتب كثيرا في المجالات وهو والد محمد الفاضل<sup>(2)</sup>.

هذا إذا هو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور باختصار شديد، والذي يعيننا من حياته هو حصيلته العلمية، ولذلك قلت فيما سلف، ولكي نعرف الرجل حق المعرفة ننظر ولو بإيجاز إلى مؤلفاته العلمية القيمة.

### مؤلفاته :

إن قيمة مؤلفات هذا الرجل أو ذاك لا تقاس بكثرتها بل بما فيها من محتوى يؤهلها لأن تكون لها قيمة علمية، ومؤلفات الطاهر بن عاشور وإن تعددت فهي لا تكتسب شرعيتها العلمية وقيمتها الفكرية من ذلك التعدد، وإنما نالت أهميتها من مضمونها ومحتواها، ويأتي على رأسها موسوعته التفسيرية المتميزة.

(1) عن مجلة منار الاسلام، العدد الثامن، السنة الحادية عشر، شعبان 1406هـ/ أبريل 1986، بتصرف.

(2) ج 6، ص 174.

- 1 - «التحرير والتنوير» : وهو تفسير كامل للقرآن الكريم في ثلاثين جزءاً، وأما ما ذكره الزركلي ونقلناه عنه أنفاً من أن هذا التفسير صدر منه عشرة أجزاء فذلك باعتبار الفترة التاريخية التي كتب فيها الزركلي الترجمة، وهذا المؤلف الأول هو الذي سنعالجه في بحثنا بحول الله.
- 2 - «مقاصد الشريعة الإسلامية» : وهو كتاب فريد في بابه، قيم للغاية لا يستغني عنه عالم، ويكفي للدلالة على أهمية هذا المؤلف أنه أول كتاب أفرد لعلم المقاصد على الإطلاق وبدون منازع، حتى أصبح يقارن بينه وبين كتاب «الموافقات» الذي خصص صاحبه الامام الشاطبي الجزء الثاني منه للمقاصد.
- 3 - «كشف المغطى من المعاني والالفاظ الواقعة في الموطأ» : وهذا الكتاب أسهم فيه صاحبه الطاهر بن عاشور في خدمة أول كتاب دون في الحديث على ما هو معروف، وهو كتاب الموطأ للإمام مالك رحمه الله، وعلى الرغم من الدراسات المتعددة لكتاب الموطأ فلا يمكن الاستغناء عن هذا الكتاب الذي أتى فيه صاحبه بما ليس في غيره.
- وهذه الكتب الثلاثة هي التي وفقني الله للاطلاع عليها، وهناك غيرها لم أطلع عليه، وسأذكرها دون أن أعلق عليها وهي :
- 4 - «أليس الصبح بقريب».
- 5 - «أصول النظام الاجتماعي في الاسلام».
- 6 - «قصة المولد».
- 7 - «حواشي على التنقيح لشهاب الدين القرافي في أصول الفقه».
- 8 - «رد على كتاب الاسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق.
- 9 - «فتاوى ورسائل فقهية».
- 10 - «التوضيح والتصحيح في أصول الفقه»
- 11 - «النظر الفسيح عند مضايق الانظار في الجامع الصحيح».
- 12 - «تعليق وتحقيق على شرح حديث أم زرع».

13 - «قضايا شرعية وأحكام فقهية وآراء اجتهادية ومسائل علمية»

14 - «أمالي على مختصر خليل».

15 - «أمالي على دلائل الاعجاز»

16 - «تعاليق على المطول وحاشية السياكوتي»

17 - «الوقف وآثاره في الاسلام».

18 - «أصول التقدم في الاسلام»<sup>(3)</sup>.

وقد ذكر الزركلي في أعلامه كتب لابن عاشور في ترجمته كما سبق

نضيفها إلى ما ذكر وهي :

19 - «أصول الانشاء والخطابة».

20 - «موجز البلاغة».

21 - ثم حقق ونشر : «ديوان بشار بن برد» في أربعة أجزاء. وقال

الزركلي في آخر ترجمة ابن عاشور كما رأينا: «وكتب كثيرا في المجالات»<sup>(4)</sup>

### نظرة موجزة ومجملّة عن تفسير التحرير والتنوير

#### تمهيد :

لقد أدركت بعد بحث مضمّن أن دراسة تفسير هذا المفسر نادرة إن لم نقل إنها منعدمة لحد الآن، ومن ثم فأنا إذ أقدم على هذه الدراسة المتواضعة المتعلقة بمنهج الطاهر بن عاشور لا أنكر الصعوبة التي اعترضتني، لأن الموضوع في نظري بكر، والدراسة حوله لا زالت جنينية لم تر النور بعد. كما أنني قبل أن أتصفح تفسير التحرير والتنوير لم أكن أتوقع ما اصطدمت به، فقد وجدت في صاحبنا إلى جانب كونه مفسرا مقتدرا، لغويا حجة ونحويا متضلعا، وبلاغيا متفننا، وفقها متبصرا، وأصوليا مدققا، وملما بعلم القراءات، عالما بأسباب النزول، إلى غيرها من العلوم التي أتقنها وظهرت جلية في تفسيره. ولأجل هذا كان الاقدام على

(3) اعتمدت في نقل هذه المؤلفات على مجلة «منار الاسلام» السابق ذكرها.

(4) الاعلام، الزركلي، ج 6 ص : 174.

هذا التفسير يحتاج إلى شيء من الالمام بهذا كله، وهذا مما يتعذر أن يجمع في شخص غالبا، ومن هنا أدركت أهمية وصعوبة التعامل مع تفسير التحرير والتنوير، مع العلم أن دراستي لهذا التفسير اقتصرت على نماذج، وإلا فإن تناول «التحرير والتنوير» برمته جملة وتفصيلا غير متيسر في هذا المقام.

### قيمة هذا التفسير والثناء عليه :

هناك مؤشرات توحى لحد الآن بأن تفسير التحرير والتنوير استطاع أن يجعل لنفسه مكانا في مصاف التفاسير، ومن هذه المؤشرات مثلا ذلك الإقبال المنقطع النظير على هذا التفسير في الفترة التي نعيشها، وقد أصبح أمرا واضحا جدا، وهذا في حد ذاته - بصرف النظر عن أسباب علمية محضة - مؤشر قوي، لأن الباحثين المهتمين لا يجتمعون عادة على الغث وإنما يتسابقون دائما إلى السمين، وتفسير التحرير والتنوير سمين بما لهذه الكلمة من مدلول في أصل وضعها لأننا سنرى فيه مادة دسمة. وتفسير «التحرير والتنوير» إن لم يكن قد شهد له أحد بعد، فقد شهد له صاحبه وزكاه بقوله «ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير»<sup>(5)</sup>. ونحن بدورنا نقول : نعم، فيه أفضل مما في بعض التفاسير وبعض ما في التفاسير أفضل مما فيه.

وقول ابن عاشور في حق تفسيره ليس فيه ما يوحى بالعجب، فليس ذلك تصرف يليق بالعلماء، وإنما الحق أحق أن يقال ويتبع، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «أنا أفصح من نطق بالضاد ولا فخر»<sup>(6)</sup>. قال الشيخ الغزالي - حفظه الله - في الملتقى الفكري الذي عقد بتونس للشيخ الطاهر بن عاشور : عندما أرى رجلا كمحمد الطاهر بن عاشور يأوي إلى القرآن الكريم، ويحرر معانيه ويبلغ هدايته ، وفي الوقت نفسه يحرر العربية.. إلى أن يقول : أما الفولكلور والكلام الساقط الذي شاع بيننا فهذا شيء آخر،

(5) التحرير والتنوير، ج 1، ص : 8.

(6) انظر موسوعة أطراف الحديث، 508/2.

قمامات فكرية تراجعت إلينا من تواريخ عتيقة وأشياء سخيصة لا أتحدث عنها الآن، وإنما المهم أن الرجل بدأ يتكلم عن اللغة ويتكلم بها أديبا، أقرأ كلماته في التحرير والتنوير فأستغرب لأنه وطأ كلمات مستغربة وجعلها مألوفة، وحرر الجملة العربية من بعض الخبث الذي أصابها في أيام انحدار الادب في عصوره الأخيرة.. وابن عاشور رحمه الله لا يمثل صورة من اللحم والدم، إنما يمثل تراثا أديبا علميا عقائديا أخلاقيا هو رجل تجسدت فيه معان كثيرة(7).

وقال فيه الدكتور عبد الله عمر ناصيف عميد الكلية الزيتونية :  
«والمؤلف رحمه الله في سعيه إلى الأحياء والتجديد في التفسير لعلم الدين قد شابه صاحب إحياء علوم الدين الإمام الغزالي الذي همس في أذن عصره بضرورة تجديد علوم الدين على أسس راسخة من العقيدة الصحيحة والعلوم النيرة والتشريع السليم والأخلاق الرفيعة، وهذه الأهداف هي أبرز مقاصد علم التفسير»(8).

إن المتصفح لتفسير «التحرير والتنوير» لإمامنا الجليل ابن عاشور - إذا لم يكن يعلم عصر صاحبه - يكاد يجزم أنه ينتمي إلى عصر كبار المفسرين القدامى الذين تميزوا بكونهم موسوعات في مختلف العلوم الشرعية، ومن ثم لم أستغرب حين سألني أحدهم عن التحرير والتنوير هل هو من التفاسير المعاصرة؟ فقد اعتاد الباحثون والدارسون للتفسير المعاصر أن يربطوا كل تفسير بميزة تخصه، الأمر الذي يصعب مع التحرير والتنوير، وقد حاولت أن أصنفه في مدرسة بعينها فعجزت، فلك أن تصنفه في المدرسة اللغوية ولا عليك كأبي حيان (ت 745هـ) صاحب (البحر المحيط) ولك أن تحشره في المدرسة الفقهية كالإمام القرطبي (ت 671هـ) في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» وتكون قد أحسنت صنيعا، ولك أن تجعله ضمن المدرسة البلاغية أو الإعجازية كالإمام الزمخشري

(7) مجلة المنار، العدد السابق.

(8) مجلة المنار، العدد السابق.



(ت 538هـ)، في تفسيره «الكشاف» ولن تجد من يخالفك، وهذه المدرسة فرع عن المدرسة اللغوية، كما لك أن تجعله صاحب مدرسة قائمة بذاتها، وتطلق عليها بكل ارتياح المدرسة المقاصدية في التفسير وتجد من يساندك. والمقاصد وإن كانت في الواقع يجب أن تطبع كل التفسيرين باعتبارها الهدف وراء كل نص، وقد مارسها نخبة طيبة من المفسرين وخاصة المعاصرين منهم، إلا أنها كانت «بالتحريروالتنوير» ألصق وكان توظيفها من صاحب التحرير أحذق، وذلك لكون الطاهر بن عاشور يعد أول إمام أفرد لعلم المقاصد كتابا كما سبقت الإشارة في ذكر مؤلفاته.

### نظرات عامة عن المنهج مع العنوان :

هذا العنصر في نظري له أهميته في البحث عن المنهجية، وكمن كتاب عرفه منهجه من خلال عنوانه، وليس معنى ذلك أننا سنقتصر على التمحيص في العنوان لاكتشاف المنهجية، ولكني سأشير فقط إلى الأهداف الكبرى التي لاشك أنها واضحة من خلال المصطلحات التي صيغ بها العنوان والتي كان يهدف إليها ابن عاشور رحمه الله من خلال موسوعته التفسيرية القيمة، ولاشك أن هذه الأهداف كان لها إلى حد كبير تأثير على المنهج الذي سلكه الشيخ في تفسيره. ولا عجب، فكثيرة هي التفاسير التي كانت عناوينها تراجم لفحواها ومضمونها

يقول ابن عاشور : «وسميته تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، واختصرت هذا الاسم باسم التحرير والتنوير من التفسير»<sup>(9)</sup>.

والعنوان كما نرى في أصل وضعه ينقسم إلى ثلاثة مقاطع :

1 - تحرير المعنى السديد : يبدو- والله أعلم- أن ابن عاشور رحمه الله كان يرمي من هذا الشق الأول في عنوانه إلى أن النص القرآني تتعدد أمامه الفهوم، والمسلم قد يحار أمام هذه الأفهام أيها الأصوب، وإن كانت كلها صواب، فهناك الصواب والأصوب، والأصوب هو الذي عناه ابن

(9) التحرير والتنوير، ج 1، ص : 8 - 9.

عاشور بقوله: «المعنى السديد» والذي يريد أن ينتشله من بين ركाम التفاسير أو ينشئه بما يسمح له به اجتهاده، ولذلك قال: «... وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وأونة عليها»<sup>(10)</sup>.

وهو الذي قال أيضا: «وإنك لتمر بالآية الواحدة فتتأملها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي وقد تتكاثر عليها فلا تك من كثرتها في حصر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافيا للحمل على البعض الآخر»<sup>(11)</sup>.

2- أما الشق الثاني: «وتنوير العقل الجديد» فالمراد منه - والله أعلم - أن العقل الانساني مهما بلغ وتطور، ومهما تفنن وتحضر، لن يسلم من الضلال، إذا عرض عن الكتاب مصداقا لقوله تعالى ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا﴾<sup>(12)</sup> ولذلك قال الدكتور عبد الله عمر ناصيف وهو يتحدث في الملتقى الذي عقد بتونس للطاهر بن عاشور سنة 1986م: فتحريير المعاني وتخليصها من شوائب الغموض والإبهام وتنوير العقول الجديدة أي المعاصرة هما من أخص وأوكد ما تتطلبه الأوضاع الاجتماعية الراهنة»<sup>(13)</sup>.

3- وأما الشق الثالث: «من تفسير الكتاب المجيد» فسواء تعلق الأمر بتحرير المعنى السديد، أو تعلق الأمر بتنوير العقل الجديد، فإن ذلك لا يستمد من غير الكتاب المجيد، واختيار المفسر رحمه الله للفظه «المجيد» وصفا للكتاب على غيرها من الأوصاف الكثيرة لم تأت عن طريق العفوية أو احتراماً للوزن، فضلاً عن كونها راعت السجع المذكور في العنوان على طريقة القدامى، وهذا ما يبدو للناظر لأول وهلة، فإنها اختيرت لكون تحرير المعنى وتنوير العقل لا يلتمس كل منهما من غير الكتاب المجيد، والمجد في

(10) نفسه، ج 1 ص : 7.

(11) نفسه ج 1 ص 97.

(12) طه 122.

(13) مجلة منار الإسلام، العدد المذكور.

اللغة العز والرفعة أو هو كما قال القرطبي في تفسيره : «المجد هو النهاية في الكرم والفضل»<sup>(14)</sup>. والكرم والفضل هما من أحسن ما جاد بهما كتاب الله تعالى على البشرية.

### نظرة إجمالية عن المنهج :

حاول ابن عاشور رحمه الله أن ينحو منحى متميزا في تفسيره، فلم يعتمد على من سبقه جملة وتفصيلا، كما أنه لم يعرض عن ذلك إعراضا، ويمكن القول بأن هذه سمة طبعت تفاسير المعاصرين.

ففي العملية الأولى، وهي الاعتماد على التفاسير كلية، تعطيل لحاسة العقل، «وقبيح - كما يقول ابن الجوزي - بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة»<sup>(14م)</sup> وتعطيل هذه الحاسة تعطيل لمكنوز القرآن.

كما أن في العملية الثانية - وهي الإعراض عن التفاسير السابقة - ضرب لتراث الأمة الزاخر، ومما لا شك فيه أن في تراثنا الإسلامي نفعا كثيرا. ولا يجوز بحال الإعراض عنه، ومن أجل ذلك قال ابن عاشور : «فجعلت حقا على أن أبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وأونة عليها، فإن الإقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي لا نفاذ له، ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون. وفي كلتا الحالتين ضرر كثير، وهناك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعد إلى ما أشاده الأقدمون فنهبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، عالما بأن غمط فضلهم كفران للنعمة وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة، فالحمد لله الذي صدق الأمل، ويسر إلى هذا الخير

(14) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ج 19، ص 194.

(14م) تلبيس إبليس، ص: 101.

ودل»(15).

ولأجل هذا كان تأثر ابن عاشور ببعض المفسرين واضحا، لكن شخصيته لم تضحل حتى لا يغيب عنا اسم مفسر آخر يضاف إلى قائمة المفسرين إسمه محمد الطاهر بن عاشور.

وقد ذكر ابن عاشور بعض التفاسير التي لها أهمية في نظره فقال : وإن أهم التفاسير تفسير الكشاف والمحزر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي وتفسير البيضاوي الملخص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع، وتفسير الشهاب الألويسي، وما كتبه الطيبي والقزويني... إلى أن يقول : وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ ابن عرفة التونسي... وتفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب الاصفهاني(16).

لكن يبدو أن ابن عاشور رحمه الله تأثر بمفسرين على وجه الخصوص هما: الزمخشري (ت 538هـ) صاحب «الكشاف» والرازي (ت 606هـ) صاحب «مفاتيح الغيب». وقد صرح باسم الثاني حيث تحدث عما ميز تفسيره فقال : «واهتمت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عنى به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى: نظم الدرر في تناسب الآي والسور»(17).

وعلم المناسبة علم جليل كما يقول الامام جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) رحمه الله، قال في إتقانه : «وعلم المناسبة علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(18).

وأیضا لما كان الزمخشري اهتم بالجانب البلاغي والإعجازي في كشافه، أو كما يقول الذهبي رحمه الله : «هو سلطان هذه الطريقة غير

(15) و(16) التحرير والتنوير، ج 1، ص : 7.

(16) التحرير والتنوير، ج 1 ص : 7.

(17) نفسه، ج 1 ص : 8.

(18) الاتقان ، السيوطي، 322 / 3.

مدافع»<sup>(19)</sup>. لم يكن بوسع الطاهر بن عاشور أن يجانبه أو يحيد عنه، وهو المتحمس لجانب البلاغة والإعجاز كما هو واضح من خلال ما قدم به لتفسيره.

ولاغرو، فكل من اتكأ على هذا الجانب الاعجازي والبلاغي في التفسير إنما هو عالة على صاحب الكشاف بصرف النظر عن اعتزاليته، ولم يفت ابن عاشور أن يعترف بالفضل لأهله حيث قال : «إلا أن منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أخص»<sup>(20)</sup>.

والاهتمام بعلم البلاغة في التفسير وخاصة بعلمي البيان والمعاني منها هو ما يؤكد عليه صاحب الكشاف في مقدمة تفسيره، بل ويعتبر التفسير المعتمد عليهما هو المعول عليه دون سواه، فيقول : «فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن كان عك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله»<sup>(21)</sup>.

هذه ملامح عامة في الحديث عن المنهج الذي سلكه محمد الطاهر بن

عاشور ريثما نفصل منهجه فيما يلي :

### منهج التحرير والتنوير مفصلا :

بعد امتلاكنا للملامح العامة المتعلقة بمنهجية «التحرير والتنوير» نحاول ما استطعنا أن نكشف عن منهجيته بقليل من التفصيل، وذلك بالوقوف على نماذج وأمثلة من تفسيره، وقد سطرت النقاط التي سأحدث

(19) التفسير والمفسرون، الذهبي، ج 1، ص : 444.

(20) التحرير والتنوير، 16 / 1.

(21) الكشاف، ج 1، ص ن.

عنها تباعا حسب أهميتها في نظري كما يلي :  
اللغة، ومن مستلزماتها بطبيعة الحال النحو والتصريف والبلاغة  
بعلومها وخاصة علمي المعاني والبيان، ويدخل ضمن هذا أيضا الحديث  
عن الإعجاز باعتباره جزءا من البلاغة، ثم القراءات ثم الفقه وأصوله...  
وهناك غير هذه العلوم التي لم تكن بارزة بشكل واضح استخدمها المفسر  
في منهجه كعلم النفس مثلا<sup>(22)</sup>.

وقد يلاحظ على البحث إغفاله الحديث عن مصادر في التفسير من  
كتاب وسنة وإجماع وما أثر عن الصحابة والتابعين.  
والواقع أن المفسر كان يعتمد على ذلك، ولكنه لم يكن يعتبره من مدد  
التفسير كباقي العلوم التي ذكرتها آنفا. والمتأمل في مقدمته الثانية من  
مقدماته العشر، والتي يمكن الاعتماد عليها في فهم منهجه في التفسير،  
يجده تحدث بصريح العبارة في آخرها فقال : «اعلم أنه لا يعد من  
استمداد علم التفسير الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في  
تفسير آيات، ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك، لأن ذلك من التفسير لا  
من مدده، ولا يعد أيضا من استمداد التفسير ما في بعض أي القرآن من  
معنى يفسر بعضا آخر منها: لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على  
بعض كتخصيص العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر ودلالة  
الاقتضاء وفحوى الخطاب ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة»<sup>(23)</sup>.

فتفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة أو بما روي عن الصحابة لا  
يعد في نظر ابن عاشور من علم التفسير إنما هو تفسير، والقرآن في  
حاجة إلى علوم يستعين بها المفسر على ما لم يفسر، ومعلوم أن ما فسر  
من القرآن، أو من القرآن، أو من القرآن بالسنة، قليل بالنسبة إلى ما لم  
يفسر، يقول الدكتور الذهبي : «وإن مما يؤيد أن النبي صلى الله عليه  
وسلم لم يفسر كل معاني القرآن أن الصحابة رضوان الله عليهم

(22) استعان المفسر بعلم النفس في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ومن الناس من يقول آمنا

بالله...﴾ كما سنرى

(23) التحرير والتنوير، 1 / 27.

أجمعين، وقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص»<sup>(24)</sup>.

ولو فسر القرآن كله من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم كما يزعم البعض، لم يكن لأحد أن يقدم على التفسير وكان قد انتهى أمر القرآن بموت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن شاعت حكمة الله تعالى وإرادته أن يبقى هذا القرآن كنزا موفورا لا يفنى على مر الدهور والسنين حتى يجد كل عصر في كتاب الله البلسم الشافي لمعضلاته، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محسن عبد الحميد «والأمر الذي لا ريب فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وفسر من القرآن ما يحتاج إليه المسلمون من أمور الحلال والحرام أما غير ذلك من الأسرار القرآنية كالأيات الكونية والقواعد الاجتماعية وحكمة التشريعات القرآنية وإعجاز القرآن، فقد وكل أمرها إلى تطور حركة العقل الإنساني لأن من المحال على البشرية أن تفهم كمالات القرآن الكريم في نواحي الوجود كلها في عصر واحد، إذ إن باستطاعة كل عصر أن يضيف إلى تفسير الآيات المتعلقة بتلك الموضوعات مما يستجد أمامه من العلوم والمعارف نتيجة لتطور الحضارة ونمو الثقافة، أي أن تفسير القرآن الكريم في عصر ما يتأثر تأثرا كبيرا بالمستوى العقلي والحضاري الذي وصل إليه المسلمون»<sup>(25)</sup>.

ومن منهج ابن عاشور رحمه الله أنه كان يمهد للسورة قبل الخوض في تفصيلاتها، وهو من هذه الناحية يشبه كثيرا من مفسري المدرسة المعاصرة، عكس المدرسة القديمة التي لم تكن تأبه بذلك في غالبها، وقد يقول قائل إن ذلك من قبيل الحشو أو الكلام الزائد، والحقيقة أن ذلك العمل منهج فريد متميز يعطي خلاصة للسورة قبل تفسيرها، وقد تميز بهذا من

(24) التفسير والمفسرون، 54 / 1

(25) دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد، ص : 9.

المعاصرين على وجه الخصوص الشهيد سيد قطب رحمه الله، وهذا العمل يدل على أن المفسر يستطيع أن يستجمع في ذهنه فكرة أو أفكار السورة، وابن عاشور كان يمهد للسورة إلا أنه لم يكن يتوسع في التمهيد كما كان يتوسع سيد قطب مثلاً، ففي سورة آل عمران على سبيل المثال قدم لها ابن عاشور بثلاث صفحات مقتضبا ومركزا على أهم قضايا السورة، بينما قدم لها سيد قطب بتسع وعشرين صفحة، حتى ليكاد الشهيد رحمه الله يعطيك ملخصا شاملا للسورة، وقد اتضح هذا المنهج عند سيد قطب رحمه الله خاصة في سورة الانعام التي استغرق تقديمها أربعين صفحة من الحجم المتوسط.

## نظرات مفصلة عن المنهج

### مسائل لغوية :

**أ - اللغة :** إن المطلع على تفسير ابن عاشور يقف على ثروة لغوية ضخمة، ولهذا يمكن عد تفسير التحرير والتنوير ذخيرة لغوية، أو كتابا في اللغة، ويستطيع الباحث اللغوي المتخصص بعملية استقرائية للتفسير أن يحقق نتيجة يهدف إليها، ولذلك جاز القول إن ابن عاشور كان لغويا إلى جانب كونه مفسرا، وقد اتضح لي هذا من خلال مطالعتي له في جانبين اثنين :

### 1 - شرحه لألفاظ قرآنية.

أما الشرح لبعض الألفاظ القرآنية، فقد كان يبحث عن أصل المادة اللغوية التي تكون أحيانا نادرة الاستعمال، لكنها تفيد في الجانب التفسيري، ولذلك قال الغزالي في كلامه الذي تقدم : « ... أقرأ كلماته في التحرير والتنوير فأستغرب لأنه وطأ كلمات مستغربة وجعلها مألوفاً، وحرر الجملة العربية من بعض الخباث الذي أصابها في أيام انحدار الأدب في عصوره الاخيرة»<sup>(26)</sup>.

وسنلاحظ هذا من خلال الأمثلة التي سندرجها باعتبارها نماذج

(26) مجلة منار الإسلام، مرجع سابق.



فقط، وإلا فإن الجانب اللغوي عند ابن عاشور كان يمكن أن يخصص له بحث مستقل.

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ والجنات جمع جنة، والجنة في الأصل فعلة من جنه إذا ستره، نقلوه للمكان الذي تكاثرت أشجاره والتف بعضها ببعض حتى كثرت ظلها وذلك من وسائل التمتع والترفيه عند البشر قاطبة، لاسيما في بلد تغلب عليه الحرارة كبلاد العرب، قال تعالى: ﴿وجنات أelfافا﴾ (27).

ويقول أيضا في نفس الآية من نفس السورة : «والأنهار جمع نهر بفتح الهاء وسكونها، والفتح أفصح، والنهر الاخدود الجاري فيه الماء على الارض وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع، ويكون كبيرا وصغيرا» (28).

ويقول في تفسير كلمة الكفر : «والكفر بضم الكاف مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر، وأصله جحد المنعم عليه نعمة المنعم، اشتق من مادة الكفر بفتح الكاف، وهو الحجب والتغطية، لأن جاحد النعمة قد أخفى الاعتراف بها كما أن شاكرها أعلنها، وضده الشكر، ولذلك صيغ له مصدر على وزن الشكر. وقالوا أيضا كفران على وزن شكران، ثم أطلق الكفر في القرآن على الاشرار بالله في العبادة بناء على أنه أشد صور كفر النعمة، إذ الذي يترك عبادة من أنعم عليه في وقت من الأوقات قد كفر نعمته في تلك الساعة إذ توجه بالشكر لغير المنعم وترك المنعم» (29).

وفي قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾، ويقول العذاب : الالم، وقد قيل إن أصله الاعذاب مصدر أعذب إذا أزال العذوبة، لأن العذاب يزيل

(27) التحرير والتنوير، 1 / 353

(28) نفسه، 4 / 354.

(29) نفسه 1 / 374.

حلاوة العيش فصيح منه اسم مصدر بحذف الهمزة، أو هو اسم موضوع الالم بدون ملاحظة اشتقاق من العذوبة، إذ ليس يلزم مصير الكلمة إلى نظيرها في الحروف»<sup>(30)</sup>.

لا شك أننا لاحظنا كيف كان الطاهر بن عاشور رحمه الله يغوص في أعماق معنى اللفظ اللغوي ليوظفه بعد ذلك في تفسير اللفظ الظاهر، ولا شك أيضا أن اكتشاف المعنى العميق المتمثل في أصل المادة<sup>(\*)</sup> وربطه بالمعنى الشرعي للكلمة فيه لذة لا يذوقها إلا من نجح في ذلك الربط (انظر مثلا كلمة الجنة والكفر) ففي ذلك ما يجعلنا نستشعر قيمة وأهمية لغة القرآن التي تتجلى براعتها في كونها استطاعت أن تنطبق أسماؤها على مسمياتها.

وأما من حيث أسلوبه رحمه الله، فيكفي أن نقرأ بعض صفحات التفسير لنلاحظ قوة لسان الرجل وسيلان قلمه، ولك أن تقرأ - أخي القارئ - بعضا من كلامه وهو يتحدث عن الإعجاز لتدرك بوضوح كيف كان يقتحم أساليب الفحول، فقد كان يعكس اللغة بلحيه لعكا حتى يخرج منها عجينة طيبة قابلة لأن يسوق منها أسلوبا باهرا يشد بعضه بتلابيب بعض وهو في ذلك مستريح غير متكلف ولنستمع إلى هذه الفقرة الرائعة، يقول رحمه الله: «لم أر غرضا تناضلت له سهام الافهام، ولا غاية تسابقت إليها جياذ الهمم، فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صباية نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وموردها للمعلول والناهل، ومغلى سبائها للنديم والواغل»<sup>(31)</sup> يالها من روعة في الاسلوب العربي الخالد تذكرنا بأسلوب أصحاب المعلمات من امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وعنتر بن شداد العبسي، والحارث بن حلزة، وغيرهم من فحول اللغة العربية والذين قل أن يجود الزمان بمثلهم.

(30) نفسه، 1 / 258.

(\*) المقصود بالمادة هنا جذر الكلمة.

(31) التحرير والتنوير، 1 / 101.

وهذا الأسلوب الرائع الذي نقلناه عن المفسر قليل من كثير، وإلا فإن هناك أمثلة قد يخطئها العد ولا يطبقها البحث التمهيدي، وستكون لنا وقفة أخرى مع مبحث الاعجاز نقف فيها ولو قليلا مع براعة الرجل، وللإعجاز صلة بالأسلوب لا تنفصم.

**ب- النحو :** وتفسير «التحرير والتنوير» غني أيضا بالقواعد النحوية، ويمكن لباحث متخصص أن يدرس الجانب النحوي عند ابن عاشور، وأهمية النحو في تفسير القرآن لا تخفى، فإن الجاهل لهذا العلم ربما وقع فيما لا يحمد عقباه، وتكون نتيجته وخيمة، ونعلم كيف قرأ قارئ قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجر رسوله، ففزع من ذلك أبو الاسود الدؤلي لما سمعه، وخاف على نضرة تلك اللغة من الذبول وشبابها من الهرم... فأدرك هذا الامام علي كرم الله وجهه وتلافى الامر، بأن وضع تقسيم الكلمة وأبواب : إن وأخواتها والاضافة والامالة، والتعجب والاستفهام وغيرها، وقال لأبي الاسود الدؤلي : إنح هذا النحو «ومنه جاء اسم هذا الفن»<sup>(32)</sup>.

وإذا كان الخوف على اللغة العربية يستلزم هذا الحذر، فإن استلزامه في حق كتاب الله تعالى من باب أولى وأحرى، ومن هنا جاءت عناية المفسرين به حتى إن تفسيراً بكامله اعتنى بهذا الجانب كالبحر المحيط مثلاً لصاحبه أبي حيان الاندلسي رحمه الله تعالى.

وبالجملة فإن علم النحو ضروري في تفسير كتاب الله تعالى، قال الإمام بدر الدين الزركشي في «البرهان» في فصل : فيما يجب على المفسر البداءة به : «الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الالفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن، لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه»... إلى أن يقول... وأما بحسب التركيب فمن وجوه أربعة: الاول : باعتبار كيفية

(32) القواعد الأساسية للغة العربية، السيد أحمد الهاشمي، ص 5.

التركيب بحسب الاعراب ومقابله من حيث إنما مؤدية أصل المعنى، وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو»<sup>(33)</sup>. وأما الامام السيوطي فقد ذكر في النوع الثامن والسبعين في معرفة شروط المفسر وأدابه قوله : الثاني : النحو، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الاعراب فلا بد من اعتباره»<sup>(33م)</sup>.

والم تأمل في تفسير «التحرير والتنوير» يجد صاحبه رحمه الله لم يقتصر على ما هو معلوم من النحو ومشهور، بل كان يقف أحيانا عند قاعدة ليحاول لم شتاتها حتى إنه ليصعب علينا أن نستمر معه إلي حين انتهائه من شرح القاعدة، وذلك يدل على اعتبار المفسر لهذا العلم وتمكنه منه، وحسبنا هنا مثلا واحدا على ما نقوله ؛ ففي شرحه للبسملة مثلا من سورة الفاتحة أسهب القول في قاعدة الجار والمجرور بما لا يتسع المقام لذكره هنا .

**ج - التصريف :** والتصريف يعتبر علما من علوم اللغة التي لا يمكن الاستغناء عنها، لا سيما إذا كان اختلاف الصيغ يفيد اختلاف المعاني، ولذلك قال السيوطي «به تعرف الابنية والصيغ، قال ابن فارس : ومن فاته علمه فاته المعظم، لأن «وجد» مثلا كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها، وقال الزمخشري من بدع التفاسير قول من قال : إن الامام في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾<sup>(34)</sup> جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال وهذا غلط أوجب جهله بالتصريف، فإن أما لا يجمع على إمام»<sup>(34م)</sup>.

وقد اعتمد ابن عاشور التصريف في بعض الآي، وقال في المقدمة الثانية من مقدماته العشر : «إن القرآن كلام عربي، فكانت قواعده العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي

(33) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 2 / 173.

(33م) الإتيان: السيوطي، 4 / 185.

(34) الإسراء / 71.

(34م) الإتيان: 4 / 186.

بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي وهي : متن اللغة، والتصريف، والنحو والمعاني، والبيان»<sup>(35)</sup>.

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾<sup>(36)</sup> معتمدا على التصريف : «والاليم فعيل بمعنى مفعول، لأن الاكثر في هذه الصيغة أن الرباعي بمعنى مفعول، وأصله عذاب مؤلم بصيغة إسم المفعول، أي مؤلم من يعذب به على طريقة المجاز العقلي لأن المؤلم هو المعدب دون العذاب، كما قالوا جد جده، أو هو فعيل بمعنى فاعل من ألم بمعنى صار ذا ألم، وأما أن يكون فعيل بمعنى مفعول، أي مؤلم بكسر اللام، فقليل لم يثبت عن العرب في هذه المادة، وثبت في نظيرها نحو الحكيم والسميع بمعنى المسمع»<sup>(37)</sup>.

وبهذا يستطيع المفسر أن يأمن الزلل المتوقع في غياب علم التصريف وقريب منه أيضا ما يسمى بعلم الاشتقاق وهو ورد الفروع إلى أصولها المأخوذة منها<sup>(38)</sup> وتكمن أهمية هذا العلم في «أن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما، كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح».

**د - البلاغة :** وابن عاشور رحمه الله قد اهتم أيضا بعلوم البلاغة وخاصة علمي البيان والمعاني، وقد أعجب ابن عاشور بالزمخشري في هذا الجانب لأن الزمخشري خاض في هذا الفن كما سبقت الإشارة إلى ذلك. «وموضع علوم البيان من علوم العربية موضع الرأس من الانسان. أو اليتيمة من قلائد العقيان، فهي مستودع سرها، ومظهر جلالها، فلا فضيلة لكلام على كلام، إلا بما يحويه من لطائفها. ويدع فيه من مزاياها وخصائصها، ولا تبريز لتكلم على آخر إلا بما يحوكه من وشيها، ويلفظه من درها، وينفته من سحرها ويجنيه من يانع ثمرها»<sup>(39)</sup>.

(35) التحرير والتنوير: 18/1.

(36) البقرة: 9.

(37) نفسه، 282/1.

(38) انظر البرهان، الزركشي، 173/2.

(39) التحرير والتنوير، 22-21/1.

وابن عاشور قال في المقدمة الثانية : «وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن، ألا ترى أنه لو اطلع أحد على تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء﴾، وعرض لديه احتمال أن يكون عطف قوله : «ولا نساء» على قوله «قوم» عطف مباين أو عطف خاص على عام، فاستشهد المفسر في ذلك بقوله :

وما أدري وسوف أخال أدري

اقوم آل الحصن أم نساء»(40)

بهذا يتضح لنا أن ابن عاشور وصل به الأمر إلى اعتبار أن بعض أي القرآن متوقف في فهمه على علم البلاغة.

يقول في قوله تعالى : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾، «وإطلاق الاشتراء هنا مجاز مرسل بعلاقة اللزوم، أطلق الاشتراء على لازمه الثاني وهو الحرص على شيء، والزهد في ضده، أي حرصوا على الضلالة، وزهدوا في الهدى، إذ ليس فيما وقع من المنافقين استبدال شيء بشيء إذ لم يكونوا من قبل مهتدين، ويجوز أن يكون الاشتراء مستعملا في الاستبدال وهو لازمه الأول، واستعماله في هذا اللزوم مشهور»(41).

ومعلوم عند البلاغيين أن المجاز المرسل هو كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة ما نعة من إرادة المعنى الأصلي، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ فاليتيم في اللغة هو الصغير، وهو عند الفقهاء الذي مات أبوه ولم يبلغ سن الرشد، وهل يصح أن يأمر الله سبحانه بإعطاء اليتامى الصغار أموالهم،

(40) نفسه.

(41) التحرير والتنوير 298/1.

فكلمة اليتامى هنا مجاز، لأنها استعملت في الراشدين، والعلاقة اعتبار ما كان.

وهكذا تتجلى أهمية علوم البلاغة في تفسير القرآن، وإلا فلولا البلاغة لتعذر تفسير كثير من القرآن ولنذكر مثلاً قوله تعالى : ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ . واللباس معروف لدى الجميع، لكن الحق سبحانه كنى به في هذه الآية، والكناية فن من فنون البلاغة في علم البيان، وقس على ذلك.

**هـ - الشعر العربي :** وأما اعتماد ابن عاشورا على الشعر وكلام العرب، فقد كان واضحاً جلياً في تفسيره، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على اطلاعه على الشعر العربي بمختلف أغراضه، يقول رحمه الله : «ولإيجاد الذوق أو تكميله لم يكن غنى للمفسر في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية ببيت من الشعر أو بشيء من كلام العرب لتكميل ما عنده من الذوق عند خفاء المعنى».

ويقول : «روى أئمة الأدب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ ثم قال : ما تقولون فيها أي في معنى التخوف؟ فقام شيخ من هذيل، فقال : هذه لغتنا : التخوف التناقص فقال عمر : وهل تعرف العرب ذلك في كلامها ؟ قال : نعم، قال أبو كبير الهذلي :

تخوف الرجل منها تامكا تردا

كما تخوف مود النبعة السفن(\*)

فقال عمر : «عليكم بديوانكم لا تضلوا هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم، وعن ابن عباس : الشعر ديوان العرب : فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه، وكان كثيراً ما ينشد الشعر، إذا سئل عن بعض حروف القرآن، قال القرطبي : سئل ابن عباس عن السنة في قوله تعالى :

(\*) وقد نسب هذا البيت لابن مقبل كما جاء في اللسان، 101/9، بإبدال كلمة «الرجل» بـ «السير».

﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ فقال النعاس، وأنشد قول زهير:

لا سنة في طوال الليل تأخذُه

ولا ينام ولا في أمــــره فند

وسئل عكرمة : ما معنى الزنيم ؟ فقال : هو ولد الزنى وأنشد :

زنيم ليس يعــــرف من أبوه

بغى الأم نوحــــب لزنيم(42)

وقد كان ابن عاشور يكثر من استشهاده بالشعر العربي، لأنه علم أن الصحابة أنفسهم فعلوا ذلك وهم أهل السليقة والسجية في اللغة فضلا عن غيرهم، وقد اشتهر من الصحابة بذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال الدكتور محمد حسين الذهبي : «غير أن ابن عباس امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيرا ما كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد روي عنه الشيء الكثير من ذلك، وأوعب ما روى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتي مسألة»(43).

وهناك من يزعم ويدعي بأن القرآن في تفسيره غني عن الشعر، ولا يجوز الاعتماد على الشعر في شرح معاني القرآن، لأن الشعر مذموم كما قالوا، وهذه دعوى باطلة وواهية لا يلتفت إليها البتة، لأن الاعتماد على الشعر مارسه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم، قال الذهبي : «وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومن يليهم، إلى أن حدثت خصومة بين متورعي الفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة، وقالوا : إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن، وقالوا كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث ؟ والحق أن هذه الخصومة التي جرت في الأجيال المتأخرة لم تقم على أساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأي من جعل الشعر أصلا للقرآن، بل هو

(42) التحرير والتنوير، 22/1.

(43) التفسير والمفسرون، 74/1.



في الواقع بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى يقول: «إنا جعلناه قرآنا عربيا» وقال «بلسان عربي مبين» ولهذا لم يترج المفسرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلي للاستشهاد به على المعنى الذي يذهبون إليه في فهم كلام الله تعالى»<sup>(44)</sup>.

أقول : وهذا هو الأصوب والأليق بكتاب الله تعالى، وكتب التفسير الفقهية المعتمدة، اعتمدت على الشاهد اللغوي من الشعر بشكل كبير<sup>(45)</sup>، فأى تورع يقصد عند أولئك الفقهاء، إلا أن يكون تورعا وزهدا في اللغة وهو أمر قبيح، ولا علاقة بين تورع وتقوى الفقيه وبين الاستشهاد بالشعر.

### منهجه في استعمال العلوم الشرعية

كتاب الله عز وجل ليس ككل كتاب، ولذلك وجب على الخائض فيه أن يتزود قبل ذلك بالسهر في الليالي ذوات العدد، وليس يكفي الامام بعلم دون آخر، إذ إن كتاب الله يحتاج إلى هذا وإلى ذاك، ولم يخف على ابن عاشور رحمه الله أهمية هذه العلوم الشرعية للتزود بها قبل الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى، وسنذكر منها بحول الله ما وقفنا عليه في تفسيره.

### أ - الإعجاز : والإعجاز ليس علما كباقي العلوم يستعين به المفسر

على تفسير القرآن، ولكنه كنز وفير مكنون ينقب عنه المفسر ويوظفه في إبراز بلاغة القرآن في نظمه وأسلوبه.

قال السيوطي: «قال السكاكي: اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحاة، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا التمرن على علمي المعاني والبيان، وقال ابن أبي الحديد: اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيح والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالنوق، ولا يمكن إقامة الدلالة عليه»<sup>(46)</sup>.

وقد ذهب بعض الأئمة من أهل هذا الشأن إلى أبعد من ذلك،

(44) نفسه، 77-76/1.

(45) راجع ذلك مثلا في تفسير القرطبي.

(46) الإتيان: 186/4.

واعتبروا الكشف عن الاعجاز الوارد في القرآن أمرا واجبا، قال الامام القاضي أبو بكر الباقلاني وهو من رجال هذا الفن في كتابه «إعجاز القرآن» تحت عنوان : «من الواجب كشف معجز القرآن» : «ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما، وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا، ولعجزته ثبوتا وحجة، لا سيما والجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق، والعلم إلى إعفاء ودروس ، وعلى أخفاء وطموس، وأهلهم في جفوة الزمن البهيم يقاسون من عبوسه لقاء الاسد الشتيم، حتى صار مالكا بدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه والأخذ في سبيله»<sup>(47)</sup>. ولا يخفى أن إعجاز القرآن له صلة بعلم البلاغة، وإعجاز القرآن هو الهدف الذي جاء من أجله القرآن للتأكيد على صدق ما أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن تأمل كلام ابن عاشور في هذا الشأن يدرك بما لا يدع مجالا للريب، مدى اهتمام ابن عاشور رحمه الله بالجانب الإعجازي للقرآن، قال في هذا الصدد : «لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياذ الهمم، فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وموردها للمعلول والناهل، ومغلى سبائها للنديم والواغل... ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الاسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا»<sup>(48)</sup>.

والذي يتأمل في المقدمات العشر التي مهد بها الطاهر بن عاشور لتفسيره، يجده خصص المقدمة العاشرة لاعجاز القرآن، وأسهب في الحديث مما يدل على تأثره بالمنهج الإعجازي في تذوق القرآن الكريم. تقول الدكتورة هند شلبي مؤكدة ميل الطاهر بن عاشور إلى الجانب

(47) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص : 22.

(48) التحرير والتنوير، 101/1-102.

البلاغي الإعجازي : «إن منهج الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في هذا التفسير قد نحى منحى المدرسة البلاغية التي يعد الزمخشري من أشهر علمائها، وإن ابن عاشور قد اهتم فيه بدقائق البلاغة خاصة كما حرص على أن يلتزم البحث في ذلك في كل آية من آيات القرآن، وهو أمر لم يسبقه إليه غيره... وموضوع إعجاز القرآن وإن كان محل اهتمام المفسرين القدامى، فإن الشيخ رحمه الله قد أتى فيه بما يراه جديدا، لذلك وددنا التركيز في هذه الكلمة على الجانب الثاني الذي اهتدى إليه الشيخ، وهو النكت المتعلقة بمعاني القرآن وإعجازه»<sup>(49)</sup>.

وأخيرا أقول، إذا كان بعض العلماء قد قارن بين ابن عاشور والشاطبي في علم المقاصد ويستحق ذلك لأنه استطاع أن يصل إلى مدارج العلماء النجاريين، ويكفيه فخرا أن يقارن بينه وبين شيخ المقاصد الامام الشاطبي فلنا أن نقارن بينه وبين الزمخشري وهو أستاذ المفسرين في المدرسة البلاغية والاعجازية، ولا عجب : فهذا هو الامام الطاهر بن عاشور الذي أفنى عمره الذي قارب القرن إلا قريبا من عقد من الزمان في إتقان العلوم الشرعية على كثرتها، وتباينها، فلم يعد يخجل من عملاق في المقاصد مثلا كالشاطبي أو عملاق في البلاغة والإعجاز كالزمخشري أو عملاق في النحو كأبي حيان، والعظام تهون أمام العظماء، وتصغر في عين العظيم العظام.

**ب- القراءات :** والقراءات لها صلة باللغة، فالاهتمام بالجانب اللغوي في التفسير يستلزم الاهتمام بالجانب الإقرائي، وذلك قال أبو حيان وهو الذي اهتم بالجانب اللغوي في منهجه في شرح الآية «... حاشدا فيها القراءات شاذها ومستعملها، ذاكرة توجيه ذلك في علم العربية»<sup>(50)</sup>.

وقد جاء الاهتمام بالجانب اللغوي أو الجانب الإقرائي نتيجة طبيعية بعد الانحراف الذي عرفه التفسير في جانبه اللغوي «ولقد أدى ظهور التيار الباطني العايب باللغة، معانيها وقواعدها إلى ظهور الاهتمام الشامل بالتفسير اللغوي، حيث قام اللغويون بحملة واسعة في جمع

(49) مجلة منار الإسلام العدد السابق.

(50) البحر المحيط، أبو حيان، 103/1.

المفردات وتنسيق الأشعار وتدوينها، كما أن اللهجات المختلفة وجدت منهم عناية كبيرة، وذلك لدراسة ما يتعلق بالقراءات في القرآن الكريم... وتمثل كتب القراءات المختلفة التي تهتم باللغات التي نزل بها القرآن جانبا مهما من جوانب المنهج اللغوي»<sup>(51)</sup>.

لهذا كان اهتمام بعض المفسرين بالقراءات واضحا جدا، ومنهم صاحبنا ابن عاشور، ولا يخفى ما لعلم القراءات من أهمية قصوى في تفسير القرآن، حتى إن بعض الآي متوقف على بعض القراءات لفهمها الفهم الصحيح، وقد وجدت في أجزاء «التحرير والتنوير» التي اتخذتها نماذج التفاتة كبيرة إلى علم القراءات، الأمر الذي يشهد للطاهر بن عاشور بتفوقه في هذا العلم العسير الذي لا يلين لغير العلماء الفطاحل.

يقول في تفسيره قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين﴾، وقد فسرت الفدية بالإطعام إما بإضافة المبين إلى بيانه كما قرأ نافع وابن زكوان عن ابن عامر وأبو جعفر «فدية طعام مساكين» بإضافة فدية إلى طعام، وقرأه الباقر بن تميم فدية، وإبدال طعام من فدية، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر «مساكين» بصيغة الجمع، جمع مسكين، وقرأه الباقر بصيغة المفرد، والإجماع على أن الواجب إطعام مسكين، فقراءة الجمع مبنية على اعتبار جمع الذين يطيقونه من مقابلة الجمع بالجمع، مثل ركب الناس دوابهم، وقراءة الأفراد اعتبار بالواجب على أحاد المضطرين»<sup>(52)</sup>. وهكذا نلاحظ كيف يستعين المفسر على التفسير بالقراءات للوصول إلى مختلف المعاني التي يترتب عليها أثر فقهي، ويختلف باختلافها.

واختلاف الأحكام الفقهية باختلاف القراءات المتواترة أمر نوبال، ومن ثم وجبت العناية بالقراءات لأجل اختلاف الأحكام باختلافها. ولأن القراءات لها صلة باللغة كما ذكرت، وجب الإمام لا بلغة واحدة

(51) دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد، ص : 14.

(52) التحرير والتنوير، 167/2.

بل بلغات العرب، لأن الاختلاف في القراءات يتطلب ذلك، ولهذا قال مجاهد بن جبر التابعي الجليل وتلميذ عبد الله بن عباس في المدرسة التفسيرية: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب».

«والتعمق في مسائل اللغة يوصل المفسر إلى المعنى الصحيح... وعدم الدقة في اللغة يوقع المفسر في أخطاء شنيعة»<sup>(53)</sup>.

**ج - الأحكام الفقهية:** من المعلوم أن القرآن مكي ومدني، وقد غلب على القرآن المكي الجانب العقائدي، وغلب على القرآن المدني التشريع، ومن ثم كانت السور المدنية بمثابة الدستور الذي يضم مجموعة من نصوص الأحكام، وهذه النصوص كان لا بد من تفسيرها وفقه ما تقتضيه من معاني خاصة، مع الإشارة إلى أنها ليست كلها قطعية الدلالة، بل فيها ما هو ظني الدلالة، وتحتاج بسبب ذلك إلى اجتهادات الفقهاء الأئمة.

ومن هنا خاض بعض المفسرين في تفسير آيات الأحكام، بل وخصصت بعض التفاسير لأحكام القرآن، كتفسير ابن العربي المالكي (ت 543هـ) وتفسير الجصاص الحنفي (ت 370هـ) وتفسير الكيا الهراسي الشافعي (ت 504هـ) وكل هذه التفاسير تحت عنوان: أحكام القرآن، وغيرها كثير.

بينما نجد بعض التفاسير وقفت مع الأحكام القرآنية بقدر يتناسب مع تفسيرها لباقي الآيات القرآنية، ومن هؤلاء كما يبدو صاحبنا ابن عاشور، ولم يكن كبعض المفسرين من أمثال سيد قطب رحمه الله الذي كان يحيل القارئ على كتب الأحكام حيث يصل لآية فيها حكم فقهي.

واللافت للنظر أن ابن عاشور رحمه الله يختلف عن غيره من المفسرين المعاصرين في هذا، بحيث لم يكونوا في أغلبهم من المفسرين المتمذهبين كما هو شأن القدامى. بيد أن ابن عاشور شأنه كشأن المفسرين القدامى الذين تذكر مذاهبهم، وهذا ما ذكر في ترجمته كما مر

(53) دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد، ص: 25.

معنا، حيث قيل فيه : «رئيس المفتين المالكيين» وقيل فيه إنه كان «شيخا للإسلام مالكيا».

فهل كان ابن عاشور رحمه الله متأثرا بمذهبه المالكي ومتعصبا له ؟ أم أنه كان ينشد الحق وينتصر له، ويرجّح الرأي الذي تقويه الأدلة ؟ ذلك ما سنحاول تلمسه من خلال ذكر نماذج لتفسير آيات الأحكام.

يقول مفسرنا ابن عاشور في تفسيره قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾: واختلف العلماء في المراد من القروء في هذه الآية، والذي عليه فقهاء المدينة وجمهور أهل الأثر أن القروء هو الحيض، وهذا قول عائشة وزيد بن ثابت وابن عمر وجماعة من الصحابة من فقهاء المدينة ومالك والشافعي في أوضح كلاميه وابن حنبل، والمراد به الطهر الواقع بين دميين، وقال علي وعمر وابن مسعود وأبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وجماعة : إنه الحيض، وعن الشافعي في أحد قوليه إنه الطهر المنتقل منه إلى الحيض».

وقد غض ابن عاشور الطرف هنا عن القاعدة النحوية، رغم موافقتنا لما ذهب إليه من ترجيح الطهر على الحيض فقال : «ومن أغرب الاستدلال لكون القروء هو الطهر الاستدلال بتأنيث اسم العدد في قوله تعالى: «ثلاثة قروء» قالوا والطهر مذكر، فلذلك ذكر معه لفظ ثلاثة، ولو كان القروء الحيضة والحيض مؤنث، لقال ثلاث قروء، حكاه ابن العربي في الأحكام عن علمائنا يعني المالكية، ولم يتعقبه وهو استدلال غير ناهض، فإن المنظور إليه في التذكير والتأنيث إما المسمى إذا كان التذكير والتأنيث حقيقيا، وإلا فهو حال الاسم من الاقتران بعلامة التأنيث اللفظي، أو إجراء الاسم على اعتبار تأنيث مقدر مثل اسم البئر، وأما هذا الاستدلال فقد لبس حكم اللفظ بحكم أحد مرادفيه» (54).

والجدير بالذكر، والذي يعد إحدى محاسن المدرسة المعاصرة في التفسير أنها لم تكن تتعصب لمذهب بعينه، وفي ذلك ما يوحى بنضج

المفسر المعاصر الذي علم أن المذاهب الفقهية إنما ظهرت يوم ظهرت لإثراء الفقه الإسلامي الذي تميز بالشمول والاستيعاب لكل قضايا الناس، والاقتصار على مذهب واحد، إنما هو قضاء على تلك الرحابة والسعة التي فيها رحمة بالناس، ولترجيح قول على قول إنما تجب فيه مراعاة الوجهة والحصافة ولذلك لم نعدم من بين المفسرين المنصفين من يرجح قولاً غير قول مذهبه، وتعد هذه سمة طبعت التفاسير المعاصرة على كثرتها، ومن هؤلاء طبعاً صاحبنا ابن عاشور.

وآيات الأحكام مجال خصب لتوظيف مجموعة من العلوم الشرعية من أهمها على الإطلاق علم الأصول وبخاصة فرعه المسمى علم المقاصد، فإذا كان علم الأصول له ضرورياً في استنباط الحكم الشرعي من الكتاب والسنة بعد أن بعد العربي عن سليقته وسجيته، فإن علم المقاصد أهم وأؤكد، بعد عملية الاستنباط، وإلا فإن المفسر لنص قرآني أو الشارح لمتن حديثي لا يأمن الزلل. وإذا أدركنا أهمية علم المقاصد في فهم النصوص زال عن أذهاننا كل لبس، وعلمنا لماذا امتنع عمر عن إعطاء المؤلفات لقلبهم من الزكاة، وهم من الأصناف الثمانية الذين يجب إعطاؤهم من الزكاة بنص الكتاب، ونعلم أيضاً لماذا أمضى عمر الطلاق الثلاث في كلمة على الناس مع أنه كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم طليقة واحدة وكذلك كان في عهد خلافة أبي بكر الصديق بل وكذلك سنتين من خلافة عمر نفسه.

بل ونذكر بجلاء ووضوح لماذا أوقف عمر رضي الله عنه حد السرقة في عام الرمادة.

إن مثل هذه الأفعال الصادرة عن عمر رضي الله عنه، لا يمكن أن يستسيغها إلا رجل عالم بالمقاصد، وابن عاشور كان من هؤلاء العالمين بالمقاصد، بل إنه ليعد في نظرنا - بمؤلفه الفريد مقاصد الشريعة الإسلامية - رجل المقاصد في عصرنا من حيث التأليف فيه، وإلا فمن حيث التطبيق والممارسة، هناك علماء كثيرون والحمد لله وظفوا علم المقاصد في

كتاباتهم.

وابن عاشور لم يكتف بالتأليف في علم المقاصد، بل إن تفسيره تطغى عليه الروح المقاصدية، ولذلك قال ابن عاشور: «ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها(\*) لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جملة كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله»(55).

قال الدكتور أحمد الريسوني في حق تفسير الطاهر بن عاشور: «... كما أن تفسيره الضخم» التحرير والتنوير «مليء بالنظرات والاستنباطات المعتمدة على مقاصد الشريعة والمنبهة عليها»(56).

وخير دليل على اهتمام ابن عاشور أيضا بعلم المقاصد - إلى جانب ما ذكر - أنه خصص مقدمة بكاملها من بين المقدمات التي عقدها لموسوعته التفسيرية للحديث عن قصد المفسر، فكانت مقدمته الرابعة تحت عنوان: «فيما يحق أن يكون غرض المفسر».

إلى هذا الحد نكون قد علمنا كيف استعان المفسر في منهجه بعدة علوم لغوية وشرعية.

ونعرج الآن باقتضاب شديد على علم من علوم العصر حاول المفسر أن يستعين به.

### اهتمامه ببعض العلوم الأخرى :

والجدير بالذكر أن المفسر رحمه الله - نظرا لكونه عاش في عصر ظهرت فيه بعض العلوم - فقد أبى إلا أن يستعين أحيانا على التفسير ببعضها، وأخص من هذه العلوم الحديثة علما واحدا هو علم النفس على أننا لو تأملنا التفسير وتدبرناه ربما وجدنا أكثر من ذلك، وسأقتصر على نموذج واحد من بين النماذج التي استعمل فيها المفسر علم النفس وذلك

(\*) معلوم أن مصطلح الغرض هو المقصد، وقد استعمل ابن حزم هذا المصطلح في أحكامه هروبا من القول بالتعليل الذي هو أساس المقاصد.

(55) التحرير والتنوير، 8/1.

(56) مجلة الهدى، العدد 24.



كما صنع في آية المنافقين من سورة البقرة : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ حيث استعان على تفسيرها بعلم النفس. فرسم جدولاً مهماً يشرح من خلاله ما يؤدي إليه النفاق فقال : «وإنما كان النفاق موجبا لا زيدا ما يقارنه من سيء الأخلاق، لأن النفاق يستر الأخلاق الذميمة فتكون محجوبة عن الناصحين والمربين والمرشدين، وبذلك تتأصل وتتوالد إلى غير حد، فالنفاق في كتمه مساوياً للأخلاق بمنزلة كتم المريض داءه عن الطبيب، وإليك بيان ما ينشأ عن النفاق من الامراض الأخلاقية في هذا الجدول<sup>(57)</sup>»

ولا عبرة بمن يزعم بأن هذا العلم دخيل على ثقافتنا، ومن ثم فلا حاجة لنا به، لأن هذا قول من يجهل حقيقة إسلامه الذي فيه دعوة صريحة إلى العناية بالنفس الإنسانية. يقول الأستاذ محمد قطب : «في كتاب الله دعوة صريحة إلى التأمل في النفس الإنسانية، وما تنطوي عليه من أسرار وآيات»<sup>(58)</sup>.

والحقيقة أن شخصية ابن عاشور المفسر المقتدر تجلت في تفسيره عموماً بشكل واضح، وفي بعض المواطن على وجه الخصوص، مما يجعله يلفت النظر، ويستوقف القارئ، والواقع أن الوقفات الرائعة في تفسيره كثيرة وحسبنا منها هذا المثال :

قال في قوله تعالى : ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾<sup>(59)</sup> : «جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، ولم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به، فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم، وقد كان هذا المراد صالحاً لأن يؤدي بنحو : للأنثى نصف حظ ذكر، أو للأنثيين مثل حظ ذكر، إذ ليس المقصود إلا بيان

(57) التحرير والتنوير، 270/1. وانظر الجدول في ص 280. من نفس الجزء.

(58) دراسات في النفس الإنسانية: ص: 5.

(59) النساء 111.

المضاعفة، ولكن قد أوتر هذا التعبير لنكتة لطيفة، وهي الإيماء إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر، إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية، فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع، قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات»<sup>(60)</sup> تأمل معي أخي القارئ كيف استطاع هذا المفسر الجهبذ أن يكشف عن النكتة اللطيفة من خلال التعبير الذي أثره الحق سبحانه وتعالى على غيره، أي أن حظ الانثى صار بمثابة الوحدة القياسية التي تقاس بها أنصباء الورثة، وإذا كان الامر كذلك، فمن غير المعقول أن نغفل شخصا صار هو «وحدة القياس» ويكفي الأنثى فخرا في الإسلام أن حظ الذكر أصبح يقدر بمقدار حظها، وهذا التفسير لعمري هو حثيات تراب يرمى بها في وجه من يحلو لهم أن ينعقوا بنعيق طالما أذى الاسماع في مسألة الإرث، فليسمعوا للنداء العلوي، وإذا لم يكن لهم حظ من فقه اللغة وإدراك أسرارها ولطائفها، فليسمعوا لرجالها الذين وعوها وتشربوها لأنهم عاشوا في أحضانها ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾<sup>(61)</sup>.

(60) التحرير والتنوير، 257/4.

(61) فاطر /14.

## مراجع البحث

- الأعلام : الزركلي.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ط، 1407هـ - 1987م. المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم.
- البحر المحيط، أبو حيان الاندلسي، ط، الأولى 1413هـ - 1993م، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق مجموعة من المحققين.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ط 1408هـ - 1988م، دار الجيل بيروت، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس 1984.
- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ الطبع.
- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ط. الخامسة، 1412هـ - 1992م، دار الكتاب العربي تحقيق السيد الجميلي.
- جامع الدروس العربية، مصطفى غلاييني، ط الثلاثون، 1414هـ - 1994م، المكتبة العصرية، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ط الأولى، 1408هـ - 1988م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- دراسات في أصول تفسير القرآن، محسن عبد الحميد، ط، الثانية، 1404هـ - 1984م، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، ط التاسعة، 1413هـ - 1993م، دار الشروق بيروت.
- الكشاف، الزمخشري، ط، الثانية، 1407هـ - 1987م، دار الكتاب العربي.

- لسان العرب، ابن منظور، ط، الأولى، 1410هـ - 1990م، دار صادر، بيروت.
- موسوعة أطراف الحديث.
- القواعد الأساسية للغة العربية، أحمد الهاشمي، دار الكتب العملية، بيروت.
- مجلة الهدى، العدد 15 والعدد 24.
- مجلة منار الإسلام، العدد الثامن، السنة الحادية عشر شعبان، 1406هـ،  
أبريل 1986م.